دار الكتب المصرية

المحاضرة الأولى

عن

الأوراق البردية العربية ومنها المحفوظ بالدار

للدكتور

أدولف جروهمان

ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة فى مساء ٥ أبريل سنة ١٩٣٠

تعريب

الأستاذ توفيق اسكاروس

رئيس القسم الأفرنجى بالدار

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م

دار الكتب المصرية

المحاضرة الأولى

عن

الأوراق البردية العربية ومنها المحفوظ بالدار

للدكتور

أدولف جروهمان

ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة فى مساء ٥ أبريل سنة ١٩٣٠

تعريب

الأستاذ توفيق اسكاروس

رئيس القسم الأفرنجى بالدار

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م

نبذة فى علم قراءة الأوراق البردية العربية

فى سنة ١٨٢٤ عثر بعض الفلاحين على جرة صغيرة مختومة وجدت فيها ورقتان مكتوبتان باللغة العربية ، وكانت هذه اللقية فى مكان بالقرب من اهرام سقارة ولا يبعد كثيرا عن دير القديس أرميا "بوهرميس" — فى مقبرة على قول بعضهم أو فى بئر على قول البعض الآخر — فسلمت لقنصل فرنسا بالقاهرة يومئذ وهو المدعو مسيو دروفتى (Drovetti) فاهتم بها وأرسلها للبارون سلفستر ده ساسى (Sylvestre de Sacy) المستشرق المعروف لكى ينشر ما بالورقتين ، وسرعان ما بحث ونشر مقالا عنها ظهر فى صفحات ٤٦٢ — ٤٧٣ من "مجلة العلماء" (Journal des Savans) الصادرة بباريس سنة ١٨٢٥ .

هذا أول نبأ علم منه الناس أمر هذه الأوراق البردية الأولى و بأمر وصولها الى أوربا فأدى البارون خدمات جليلة يقدرها العارفون الى أيامنا الحاضرة ، ومن ذلك الوقت تنبهوا الى شأن الأوراق البردية العربية ومن ثم تطور البحث فى غضون الثلاثين سنة الأخيرة حتى أصبح علما ضروريا لدراسة تاريخ الاسلام وحضارته .

لم يكن هذا الاكتشاف فى أرض منف القديمة وحيدا بالنسبة للأوراق العربية لأن أبا العباس العالم النباتى فى سنة ٧١٣ للهجرة (١٢١٦م) كان قد أعجب بما رأى من العظمة والجلال فى أطلال تلك المدينة القديمة العريقة فى المجد والمدنية ، فلا عجب أن وجدت بين أطلالها وخرائبها مثل تلك اللقية .

بعد مضى خمسين سنة وجدوا بالفيوم فى أطلال أرسينوه القديمة كمية كبيرة من الأوراق البردية تنقلت إلى أن استقرت بين مجموعات أوربية منوعة أهمها ما حفظ فى ڤينا و برلين و باريس . ومن المحتمل أن يكون تاريخ كثير من الأوراق المحفوظة بدار الكتب المصرية متصلا بتلك اللقايا أو أن تكون جزءا منها ،

ثم اكتشفت مجموعات أخرى من الأوراق البردية العربية وجدها المنقطعون للبحث عن السباخ بين تلال اهناس (هيراكليو بوليس) وأخميم (بانو بوليس) والأشمونين (هرمو بوليس ماجنا) والبهنسا (أوكسيرينكوس) وكوم اشقاو (أفروديتو بوليس) وميت رهينة (منف) وبدير القديس أرميا (بوهرميس) بالقرب من سقارة ، وفى ادفو حيث عثروا بجانب بعض أوراق متفرقة على الكتاب العربى الوحيد المخطوط على بردى كاملا على نوع ما ومكونا لأكبر مجموعة من نوعها فى الحديث الشريف يرجع تاريخه الى القرن الثالث للهجرة (١) .

وقد لا يخطئ من يظن أن الموجودات المستخرجة من تلال البلاد القديمة قد تصل الى أيدينا سالمة خالية من العيوب ، وذلك لأن الأجزاء النفيسة وجدت متلاصقة متماسكة الى حد يقرب من تحجرها مطموسة بالتراب وملقاة فى ناحية ، هذا غير ما يصل الينا ممزقا كله أو بعضه من فعل أكل أرضة سواء كان لرطوبة الأرض فانعدم فى الظاهر ولا أمل لارجاعه أو انها آلت تقريبا الى العدم من فعل النيران وقد تكون فى الغالب هى القطع الأكثر نفاسة ومن الأسف أن تؤول الى مثل هذه الحال .

أما ما سلم من الأرضة فانه فى الغالب يؤثر فيه السباخ فيعدمه أو يفتته قطعا صغيرة من أقل ملامسة للغبار أو لاختلاط بالتراب والرمال ومثل هذه الأجزاء وبعض القطع التى لا يستفاد منها قد لا تتأتى سلامتها إلا بفضل العامل الصابر الذى يبذل جهده لاستخلاص ما يقدر عليه خدمة للعلم .

بجانب هذا توجد لحسن الحظ قطع سليمة يمكن قراءتها بسهولة وبغير احتراس وتلك الأوراق هى التى تكون فى الغالب محفوظة فى جرار من نخار أو سلال مثل

---

(١) يشير المحاضر بذلك الى أوراق كتاب أبي محمد عبد الله بن وهب الفهرى المولود فى ذى القعدة سنة ١٢٤ للهجرة وقيل فى سنة ١٢٥هـ وهو الكتاب المحفوظ تحت رقم ٢١٢٢ حديث بالدار ويرى فى قاعة المعرض ويشمل "كتاب الأنساب ، وكتاب الصمت ، وكتاب الخاتم ، وكتاب الأجناس من بنى اسرائيل من جامع عبد الله بن وهب بن مسلم القرشى المصرى عفا الله عنه ونفعنا به" .

التى وجدت فى سقارة وذكرت آنفا ، وكثيرا ما تكون هذه الأوراق ملفوفة فى أدراج صغيرة مربوطة فى دبار بخيوط أو برباطات صغيرة من البردى أيضا عليها طابع المؤلف وخاتمه غالبا ، وهنا يجب العمل بصبر وتوءدة فى ثبات لفك الأدراج وتسطيحها، ذلك أفضل من إعادة توليف الأجزاء الصغيرة الى بعضها ولصق القطع الممزقة أو الشذرات منها .

أجل ان عملا كهذا يتطلب مجهودا كبيرا يترتب عليه كثير من المسؤولية ويقتضى مهارة فى علم حين يتذكر الانسان أن شذرة واحدة قد لايتنبه المشتغل اليها تكون لازمة لوضعها فى مكانها الأصيل وموقعها اللائق بها، والأدهى من ذلك حين يكون التجار الذين اعتادوا شراء البردى أو أولئك الذين يجدون بعض أوراق بردية فيدفعهم الطمع الى فصل شذرات مختلفة إما تعمدا أو بدون علم وقصد سيء.

ان التوليف فى الغالب لا تخفى أهميته القصوى للوصول الى قراءة الأوراق البردية فقد يغش المرء أمام خليط من القطع التى يجدها فى غير محلها و بلا أقل ارتباط بين بعضها البعض، فماذا يجب أن يعمل ؟

يجب قبل كل شيء فصلها بعناية كبرى وفى كثير من الاحتراس حتى يمنع التشويه الناتج من النهم لزيادة جر النفع كما يجب الانتباه لمنع الغش الناتج من الخلط .

فاذا ما وجدت لقايا كثيرة ولصقت تألفت منها مجموعات مختلفة : كعقود بيع وشراء مثلا ، فالموضوع واحد ولكن عند فصلها عن بعضها يحدث مرارا أن يجد الباحث جزءا من هذه العقود فى مجموعة — ولنفرض أنه الجانب الأيسر من خطاب أو عقد رسمى — فى حين أن الجانب الأيمن موجود فى مجموعة أخرى وهذه على مر الزمن قد تتفتت أحيانا من جراء التثنى فى وسط الأوراق .

ألا تجدون فى ذلك غرابة تجعل العمل التحضيرى الممهد للمشتغل بشؤون الأوراق البردية وحفظها صعبا وفى كثير من الأحيان صعبا جدا ؟ فانه يبدأ بالقراءة

والحل حتى يظن نفسه أنه قريب من النهاية واذا بصعوبات تقوم فى وجهه من أنواع أخرى ، وهذا ما لا يحدث فى قراءة الأوراق البردية اليونانية والقبطية لأن هذه محفوظة حفظا حسنا على نوع ما بما يسهل على المهتمين قراءتها وحلها حتى ولو كانوا قليلى الخبرة بشؤونها بخلاف الأوراق البردية العربية ، فهناك النقط معدومة ولكن هنا نقط مميزة بين الحروف المتماثلة فى كتابتها مثل الباء والتاء والثاء والنون والياء والجيم والحاء والخاء وهلم جرا .

كما أنه فى كثير من الأحيان تكون كتابة الكلمات قابلة لتأويلات فى المعنى ولا يكون القارئ متأكدا من أن شخصا كان فيما مضى ”دقاق“ أى تاجر دقيق أو ”زقاق“ صانع الزق أى القربة ، كما أن هناك كتابات تتشابه فيها الحروف مثل الدال المكتوبة فى آخر كلمة فاذا ما كتبت طويلة تكون كالكاف . كذلك الراء والدال وهما حرفان يمكن الخلط بينهما بسهولة الى ما الى ذلك من أنواع التشابه ، ويحدث أن تكتب يد ثقيلة خشنة دالا بضغط فى أولها فيظنها القارئ واوا ولا يفطن لها .

لا بدع أن يحصل التأويل والاحتمال الكثير ، وقد يصعب الأمر أكثر أمام الأسماء الأعلام على الخصوص ، ولكن قليلا من الخبرة قد تسمح للباحث المتريث باتجاهه الى الهداية . وإنى لا أريد أن أعلمكم وأوضح لكم جميع الصعوبات تفصيلا ، لأن قليل الخبرة يرى نفسه حائرا تائها فى لجة من الشكوك والفروض ولكنى لا أخفى عنكم أن أشكال الحروف المهملة فى رسمها كلها قد لا تكون وحدها موضع الاحتمالات . بل هناك ما هو أنكى حيث تكون جمل بأكملها أو عبارات دينية مثل ”الحمد لله وهو أهله“ أو غيرها مثل ”وكتب شهادته فى تاريخه“ قد تعوّد كاتبوها أن يكتبوها متواصلة أو مختصرة (١) بكيفية لا يمكن تصوّرها .

هذه قد يكون أمرها سهلا اذا كانت لها أمثال كثيرة أما اذا كانت الحال فى كتابة اكتشفت حديثا فقد يكون من الضرورى التريث الى أن تقرأ عبارتها مع محاولة

---

(١) مثل « حدثنا » تكتب « ثنا » وغيرها . وأخبرنى حضرة الدكتور جورجى بك صبحى أن فى القلم الديموتيقى يحدث كثيرا جدا مثل هذا وبأشد صعوبة منها كما أنهم يكررون ألفاظا بعبارات مختصرة مثلها .

ارجاعها الى الوضوح ، كما لو كانت مكتوبة بخط جلى . اذًا يمكنكم إدراك مبلغ الصعوبة فى حل الغاز مثل هذه الكتابات ، ولا أغالى أبدا اذا قلت لكم أنى أعرف المهرة من المستعربين كان بينهم من تحير واختلط الأمر عليه إزاء صعوبات لحل مثل تلك الكتابات . النتيجة ليس أمام قارئ الخطوط العربية سهولة كما يظنون ولا يجدن فى طريقة ورودا كما يقولون .

ولربما تسألونى عن الموجب الذى يحتم على قارئ البردى العربى شروعه فى عمل جسيم كهذا قد يخطئ فيه أو يصيب؟ فالجواب أن هذا أمر لازم والى الدرجة القصوى وإلا فمن المحتمل أنى ما كنت لأحدثكم اذ تتأكدون بأنى كنت أخصص أوقاتى الى دراسة أشياء أكثر أهمية .

يمكننى أن أقول لكم أنى بعد خمس عشرة سنة من العمل المتواصل أرانى مغتبطا أكثر من بدايتى به فى أول يوم ، وأن السرور العظيم من هذا العمل على صعوبته قد ازداد بوجود أشياء وحيدة من نوعها .

لقد ينبهر قارئ الخطوط والكتابات ويعجب من أثر شيده ملك عظيم حين يكتشف كتابة قد يتضح فيما بعد أنها مصدر تاريخى جليل وعلى غاية من الأهمية .

كذلك كم يكون حظ قارئ الورق البردى العربى منا سعيدا اذا وفق لقراءة أمر عال أو مرسوم حفظه القدر من العبث وكان من حسن الحظ أن يصل الينا سالما . لنضرب لذلك مثلا تلك البراءة الصادرة من الأمير المستنصر بالله فى سنة ٢٤٢ للهجرة (سنة ٨٥٦م) اذ قد حوت فى سطور قليلة تبليغا لوكيل الأمير باسناد المنصب الى العباس بن عبد الله بن أمير المؤمنين بما معناه : من محمد المستنصر بالله ولى عهد المسلمين ”عهدنا إليك بالحكم فى مصر وبرقة والاسكندرية“ .

أمثال هذه القطع ليست قيمتها فقط فى صدورها من شخصيات تاريخية بارزة ولا فى خطوط مصدريها ولكن أهميتها تناول البحوث والمصادر الأخرى التى تكون

موضوع دراسة غاية فى الفائدة . وعندنا منها أمثال كثيرة بدأت من عام ٢٢ للهجرة (٦٤٣ م) لغاية عصر الفاطميين . وجميع أمور الحياة اليومية قد تجلى للباحث من وقوفه على تفصيلات مهمة إذ نستكشف كيف كان يتصرف ولاة الأمور فى مصر القديمة ويعملون فى عهد الأمويين والعباسيين، وكيف كانت العلاقات فى الدواوين بينهم، وكيف كان الأهالى يستنصفون الحكام ليقضوا بينهم بالعدل، وكيف كانت أحوال البلاد الادارية وتجارة مصر وصناعاتها فى القرون الأولى للهجرة، وكيف كانت سوقها تحتكم فى أسواق العالم كله بحاصلاتها يومئذ خصوصا فيما لا مثيل له اذ ذاك كأوراق البردى والمنسوجات ذات الخيوط .

ومنها نعلم أثمان الأصناف الصناعية والحاجيات المعاشية وأثمان الأراضى والعقارات، وهكذا نتتبع الحوادث ونتصوّر سعادة مصر القديمة وضعفها فى مختلف العصور، ولا نقف منها فقط على قيمة النقود النسبية حيث كان الذهب أغلاها ووحدتها، ولكن على أسعارها أيضا بالنسبة للفضة وهكذا فى باقى المعاملات .

نعلم أيضا بأن السفن الشراعية التجارية كانت تذهب الى أنطاكية والى النوبة لتنقل كميات الذهب المنتظر ورودها منها . كما نلقى نظرة الى لغة التخاطب بين التجار ونعلم كيف كانوا يمسكون دفاترهم ويضبطون حساباتهم .

أما الحياة الداخلية فقد وضحت أساليبها أمامنا بفضل وجود آلاف من الخطابات التى كانت لاتقتصر فى فحواها على العلاقات اللطيفة بين الجنسين ولكن تنكشف عنها أمور دقيقة ذات تأثيرات مهمة من عهد بعيد فى القرون الوسطى .

هنا نرى مرءوسا يخاطب رئيسه المريض بلغة الشرق السحرية مستفسرا عن صحته، وهناك نرى يتيما بائسا يخاطب الحاكم ويقدّم اليه ملتمسا، كما نعثر على نصيحة من والد الى ولده أو على أوامر أصدرتها سيدتان لوكيل أشغالها ، وبالجملة نرانا بين أحوال الحياة اليومية التى تكلمنا بأفصح بيان عن حياة تلك العصور الماضية بمزيد الغرابة .

يقينا لا يوجد مؤرخ مهما كان كثير التعمق فى التفاصيل ولا قصصى أو جامع للحكايات أو كاتب يمكنه كشف القناع عن وصف دقائق الحياة فى تلك العصور الخوالى بمثل ما تحدّثنا به هذه الأوراق التى أخرجت من أرض مصر، إذًا من هنا تتبين الأهمية لأنها المعين الصحيح والمصدر الصادق لتاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الزاهية فى العالم الماضى .

⁂

لكن من أى نوع كانت هذه الأوراق وأقصد أية مادة من المواد كانت تستعمل للكتابة ؟

كانت فى أول الأمر على ورق بردى ، ولا يخفى أن البردى من الحاصلات الخاصة التى تنبتها مصر . وكان مستعملا من قديم الزمن على عهد المملكة المصرية الوسطى ويمكن القول وعلى سبيل التأكيد بأن النباتات التى عملت منها الأوراق البردية كانت تلعب تقريبا فى حياة مصر الاقتصادية نفس الدور الذى يلعبه القطن الآن وفى أيامنا الحاضرة .

ففى مستنقعات الدلتا كانت مسطحات واسعة تغطيها هذه النباتات التى كانت تستعمل جزورها وأوراقها فى شؤون مختلفة ويزرعونها بين المشاتل وبقيت زراعتها الى أن اختفت منذ أواسط القرن العاشر للميلاد حيث كفوا عن زراعتها .

ولكن حوالى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) كان يوجد كثير من الأوراق البردية فى بركة قارون بالفيوم ، وفى الوجه القبلى ، وفى أواخر القرن الثامن عشر حتى سنة ١٨٢٠/٢١ (١٢٣٦ هـ) كانت هذه الحشائش لا توجد إلا نادرا فى مستنقعات الدلتا . أما فى أيامنا الحاضرة فان زراعتها تباعدت الى السودان كما أن القاهرة لا تخلو من وجود بعض منها الى الآن فى بساتينها ، وفى حديقة الحيوانات قدر جميل منها .

ومن المناسب ذكره أن بعض الشعراء فى الجاهلية كانوا يشبهون هذا النبات لجماله وتناسقه بحركات المليحة وذات القامة الهيفاء والكاغد الحسناء(١) .

وكان قدماء المصريين يتخذون من جذور هذه النباتات طعاما وغير ذلك من الحاجيات ، كما صنعوا منها حبالا وأنه فى دمياط كانوا يصنعون منها حتى سنة ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) حصيرا أيضا وما زالوا يعملون .

غير أن المهم فى الموضوع أن نوعا من الورق البردى كان يصنع من لبابه ، وهذا عرف فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام وسرى استعماله مدّة ثلاث قرون وصار واسطة عقد الحياة العقلية والثقافة فى مصر حتى اذا ما فتح العرب أرض الكنانة امتلكوا هذا الورق الغريب ، وكان الخلفاء يفضلونه فى رسائلهم لأنه كما يقول البيرونى المؤرّخ العربى فى تاريخ الهند صفحة ٨١ وما بعدها أنه لا يمكن محو الكتابة دون اتلاف البردى .

وقد يكون من المفيد علمنا بأن الامارة المصرية فى عهد السيطرة العربية نفسها استمرت فى استعمال ورق البردى إذ نجد أمامنا أوراقا من عهد فاتح مصر عمرو بن العاص كما أنه من المفيد أيضا علمنا بأن الخليفة الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ (٧٠٥ — ٧١٥ م) كان يستعمله فى شئونه الشخصية . ونذكر أن الامارات السورية وفى دواوين الحكومة على عهد الأمويين ما كانوا يكتبون إلا على البردى ولم تستبدل الكتابة على الورق إلا فى عهد العباسيين ولا يخفى أن الرقوق كان استعمالها شائعا للكتابة عند الفرس فأخذوها عنهم .

ذلك التغيير يرجع الى عهد أبى جعفر المنصور ١٣٦ — ١٥٨ هـ (٧٥٤ — ٧٧٥ م) ولكنهم فى أحوالهم الخاصة وأمور الحياة الداخلية كان استعمال البردى قائما فى العراق

---

(١) اكتشف الدكتور ريزنر (Reisner) أوراقا من عصر الاهرام بالقلم الهيراتيق فيها مثل هذا التشبيب والغزل عند قدماء المصريين فى وصف البردى وعود اللوتيس (Lotus) أى اللينوفر .

الى مدّة مديدة ففى الحى التجارى ببغداد ”الكرخ“ كان يوجد شارع للبردى ومعروف باسم درب القراطيس.(١)

وهنا فى سنة١٧٨ ﻫ (٧٩٤/٩٥ للميلاد) أنشأوا أوّل معمل لصناعة الورق ومن ثم تقدّمت صناعته وانتهى الأمر بأن تقوم مقام البردى نهائيا، ومن المؤكد أن تحوّلا كهذا يتطلب زمنا .

فى سنة ٩٠٣ للميلاد (٢٩١ ﻫ) كانت أدراج البردى الواردة من مصر منتشرة فى غرب الدولة الاسلامية بينما كانوا فى الشرق يفضلون ورق سمرقند . على أن تدهور البردى تم فى غضون نصف قرن تقريبا ذلك لأن الورق على متانته كان يباع بأثمان أرخص مما كان يباع به البردى مع ما كان عليه البردى من الغلاء فى القيمة والسرعة فى العطب . وعلى الرغم من ذلك فان الدوائر البابا وية ما زالت تستعمل البردى حتى سنة ١٠٥٧ م (٤٤٩ ﻫ)

⁂

هنا يصح التساؤل كيف كان يصنع البردى ؟ الجواب أنه كان يصنع كما كانوا يصنعونه قدماء المصريين تماما و يقينا اذا قورنت رواية الكاتب الرومانى پلنيوس (Pline) بما أثبته العالم النباتى أبو العباس المشار اليه آنفا فى بيانه الذى نوه اليه ابن البيطار.(٢)

تصوّروا أنهم كانوا يفصلون بالعرض سيقان هذه الحشائش الطو يلة الى قطع يتساوى ارتفاعها مع ارتفاع الورقة المراد تكو ينها، و بعد أن ينزعوا القشور يفصلون

---

(١) أنظر كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ ص٣٣٦ و ٣٣٧ ، وتاريخ الطبرى جزء ثالث ص٩٩٩

(٢) جامع المفردات جزء أول ٨٧ قال : ”وصفة عمل القرطاس عند المصريين فى الزمان الأوّل كانوا يعمدون الى سوق النوع فيشقونها بنصفين من أولها الى آخرها و يقطعونها قطعا قطعا و توضع كل قطعة منها الى لصق صاحبتها على لوح من خشب أملس و يأخذون ثمر البشنين و يلزجونه بالماء و يضعون تلك اللزوجة على القطعة و يتركونها حتى تجف جدا و يضربونها ضربا لطيفا بقطعة خشب تشبه الأرزبة صغيرة حتى يستوى من الخشن فتصير فى قوام الكاغد الصرف المثل ، ويستعملونه فى العلاج“ .

بآلة حادة و بسنها الرفيع الصفائح الرقيقة التى يتكوّن منها قلب الساق. كانوا يصنعون ذلك بالكيفيــة التى كان يقوم بهـا الصينيون فى صناعة الورق من قش الرز ”وهو المعروف بالاسم اللاتينى Aralia tetrapanax papyrifera فى الاصطلاح النباتى“ وذلك بشق لب الساق بطوله مع الضغط عليه فى رفق و بانتظام ثم لصقها على أوراق رقيقة بسمك متساوٍ بآلة حادة و بحركة دائرية منتظمة لكى نحصل على أفرخ رفيعة .

وهناك طريقة أخرى كانت تحصر فى تثبيت آلة حادّة كالمقطع على مسطح أفقى وتحريك لب البردى أى القطع الرخوة اللزجة حول محورها مع ضغطها قليلا بملاصقتها للآلة الحادّة حتى يمكن بذلك استخراج قشور رفيعة من اللب طويلة بجانب بعضها البعض ، بعد ذلك تؤخذ قشور أخرى لتوضع على الأولى وتضغط الطبقتان بآلة كالمحارة فتتكوّن منهما الورقة وفى الوقت نفسه تكون ملساء .

وكان يظن أن القطع الرخوة يمكن فصلها بمجرّد تجريح أو خدوش بسيطة فى قطاعات طوليـة ولكن الفحص الميكروسكوبى أوضح لنا ان الأمر ليس كذلك لأنه اذا كانت اللفائف التى يظن فصلها الى قطاعات طولية توضع بعضها فوق بعض فان كميات أوعية اللب التى تراها العين المجـرّدة كأنها ألياف يلزم أن يظهر امتدادها من طبقتين : غليظة من ناحية القشور رقيقة فى الجزء الوسطى ، ومن ثم حيث تكون كميات اللب متلاصقة يجب وجود طبقات غليظة بينما يجب أن تكون دقيقة فى الوسط على أن الأوراق البردية لا يظهر فيها هذا الاختلاف .

ثبت من الفحص الميكرسكوبى أن كمية الألياف متشابهة كما تظهر كذلك للعين المجـرّدة ، واذا أردتم أن تختبروا فخذوا غير مأمورين قطعة من الورق البردى القديم وعرضوها للنور فترون أن كميات اللب التى يبلغ طولها بين سنتيمتر واحد ونصف سنتيمتر الى ثمـان سنتيمترات يرى الفاحص أنواعا رقيقـة أو غليظة أو رقيقة جدا أيضا ، كما أن قطع الأوراق تختلف كثيرا طولا وعرضا ، اذ أن أطولهـا يبلغ الى مقياس ٧٥ سنتيمترا فى ٤٤ سنتيمترا ونصف سنتيمتر عرضا .

هذه الأوراق كانت جففت وصقلت بمدق أو بمخباط وملست بواسطة محفة من غراء النشا ، ولصقت الأوراق لتكون ملفا طويلا وكان لصقها محكما جدّا حتى يكاد يكون اكتشافها صعبا فقد حدّثنا الكندى(١) من أشهر كتاب العهد العربى عن درج طوله ٣٠ "حورة رومية" وهو ذراع مقياسه ٥٤ سنتيمترا أى بما يقرب من الخمسة عشر مترا ، غير أنه ليس من المجزوم بصحته أن يوجد ملف فيه عشرون ورقة ظلت محفوظة مدة العهد العربى لأنا لم نجد هذا القدر طولا من ذلك العهد ، وغاية الأمر أن الذى عثر عليه وحيدا مكونا من عشرين ورقة وتاريخه سنة ٨٨ للهجرة (٧٠٧ للميلاد) لم يتعدّ طوله خمسة أمتار .

ولا بد لنا من الاشارة الى أن الأوراق ضمت لكى تكون أليافها أفقية فى المقدم عمودية فى الخلف (أى على الوجه والظهر) ولا يوجد اختلاف عن هذه القاعدة إلا فى الورقة الأولى إذ كانوا فى الأغلب يصنعونها من مادة أسمك وأقل صلاحية عن الأوراق الأخرى التى يتألف منها الملف نفسه وفى الغالب أيضا أن تكون الورقة الأولى على قفاها بمعنى أن تكون ملصقة بكيفية أن تكون أليافها العمودية هى الأمامية وأليافها الأفقية هى الخلفية .

أما تعليل ذلك فسهل إدراكه لأنه لأجل حفظ البردى بسهولة كان يطوى متوازيا من الجهة الضيقة وبذلك تكون الورقة الأولى فى الخارج وتغطى الملف أو الدرج كغلاف وعليه يلزم انتقاء ورقة أكثر سمكا بحيث تكون أليافها فى خط أفقى حول الدرج بأكمله حين يكون مطويا وبذا كان منظره مقبولا .

ولقد كان اليونان يدعون هذه الورقة ويعرفونها باسم بروتوكول أو الطراز وكانوا يزينونها بكتابة حروفها ممتازة فى الرسم ويتخذون لها قلما خاصا أو منقاش للتصوير كريشة للمصور ، وتلك الكتابة تنحصر فى اسم العامل المكلف بصناعة البردى والمكان

---

(١) ونقل عن الامام الكندى ، جلال الدين السيوطى فى حسن المحاضرة جزء ٢ ص ٢٣٠ «و يعمل طوله ثلاثون ذراعا وأكثر فى عرض شبر» . على أن ورق البردى المصرى بلغ منه ما كان طوله ١٢٠ قدما فى قدم ونصف أى ٣٠ مترا فى نصف متر وغيرها كان أطول من ذلك .

الوارد منه وتاريخ صدوره، فلم يتغير ذلك فى حكم العرب لأنه فى عهد عبد الملك بن مروان فى سنة ٧٤ للهجرة (٦٩٣م) وربما كان بعد ذلك التاريخ بسنتين طرأ إصلاح بدّل الرموز المسيحية وعباراتها بعبارات مكتوبة باللغتين اليونانية والعربية.

ولا يصعب على المرء ادراك السبب لأن إحساس المسلمين الدينى كانت تؤثر فيه الرموز المسيحية وقد وجد صليب على بروتوكول بيزنطى محفوظا فى المتحف البريطانى بالقسم الشرقى رقمه ٥٠٠١ فى ورقته الأولى (١) فمن السهل معرفة الداعى الى هذا التغيير.

كذلك يوجد شىء ثانٍ كان وجوده يعدّ افتياتا ثقيلا على حقوق الدولة لذكر أسماء الموظفين اليونانيين فى تلك الصكوك الرسمية (البروتوكول) فاستبدلت فيما بعد بكتابة يونانية وعربية، ذلك غير مذكرات سياسية ذات صيغة مؤلمة تبادلت بين دولتى بوزنطية ودمشق كانت نتيجتها قطع العلائق الودّية بينهما ودعت الى ضرب النقود العربية فاستبدلت الصيغ المسيحية المألوفة فيها بالطبع بصيغ إسلامية، اذ كان يبدأون بكتابة شهادة التوحيد وبدل اسم "قوميس" الحاكم الرومانى كانوا يكتبون اسم الوالى العربى على مصر وهو الذى كان فى الغالب يتولى ادارة بيت المال، وفى بعض الأحيان كان يكتب اسم الخليفة أيضا.

على أن الحكومة العربية لم تتعرض كثيرا لهذه الأمور وتأبه لها فى عنف وتصر عليها بل احتفظت على نوع ما بنصوص تلك العهود البيزنطية (البروتوكول) الى وقت طويل وكانت تكتبها باللغتين اليونانية والعربية.
